الباب الرابع

في فناء زمزم

"أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن

قلت في القرآن ما لا أعلم"

"أبو بكر الصديق"

الفصل الأول

المعجزة

استقبلت مكة محمد بن إدريس استقبال مغترب بارحها فقيرا، وانكفأ إليها لا يملك نقيرا ولا قطميرا. لكنه أمسى ربح القلب ناعم البال، بعد تطواف شق واستطال، أمكنه من علوم الحجاز والعراق واليمن والشام ومصر.

وفتحت الكعبة ذراعيها لعالم قريش، ليتخذ مكانه في جوار مقام إبراهيم.. في فناء زمزم.

واستقبلته مكة بتقدير الوطن لفتاه الذي سبقته أنباؤه، والذي أعز وطنه لدى القارعة، ولم يطأطئ هامته لينجو بحشاته – بل وقف الوقفة القرشية حيث تزوغ الأبصار.

واستقبلته حفية بالعلم الذي يحمله إليها ليزداد علمها كل ازدياد. وكان مسلم بن خالد الزنجي قد قضى منذ سنوات أربع، فحل محله سعيد بن سالم القداح. أما أستاذه الآخر سفيان بن عيينة زعيم المحدثين فقد مسه الكبر. لكن حلقته ما تزال بالمسجد الجامع.

ولم يعد الشافعي يتردد في أن يجلس للإفتاء. فقد أنسئ له الأجل مذ أذن له بالإفتاء من بضعة عشر عاما، تضاعفت بها سنوات حياته ضعفين، وتضاعف علمه أضعاف ما كان لديه، بقدر ما اجتمع له من علم مالك وعلم أبي حنيفة وعلوم الآخرين.

صار في الرابعة والثلاثين من حياته، وفي يده كل علم العراق، وهو شأو لم يبلغه أستاذه مالك. كما لم يكن عند مدرسة العراق وأساتذتها سنن الحجاز كلها، من مكة والمدينة، وفي هذا تجاوز أبا حنيفة.. وهكذا بلغ أعظم مبلغ من الدراسة لنفسه قبل أن يتصدى للتدريس للناس.

بل هو قد طاولهما وساجلهما فسبقهما في حلبة اللغة. والسبق بها ضرورة للاجتهاد. والسبق فيها ذروة تسمو به إلى معارج أعلى لإدراك القرآن والسنة.

وباجتماع هذه العناصر اجتمعت له أدوات الفقه العظيم ليستقرئ ويستنبط ويقعد القواعد في مجال تخصصه الذي لا ضريب له فيه وهو القرآن والسنة: فأمسى أقدر معاصريه على أن يمسك في يده الميزان، وينقد الآراء نقد الصيرفي المفهم. وسيبقى هذا الذي تم له في شبابه ملاك فقهه، وطريقته، طول حياته. فيكون قواما بين المدرستين في العراق والحجاز، ويضع حجارة الأساس لاستنباط الفقه الإسلامي من القرآن والسنة على منهاجه الذي دونه بمكة، وأذاعه في العراق، واتخذ مصر قاعدة لنشره في العالم.

وكانت البلدة المباركة التي نزل بها القرآن، هي البيئة الطبيعية لميلاد هذا الفقه ونمائه. أن كان الامتداد الطبيعي لفكرها. على منهج علمي سيضعه، بلسان عبقري، لا يجود الزمان بمثله في الجدال بالقرآن والسنة.

***

والقرآن كتاب أحكمت آياته ثم فضلت، لا يفسرها إلا أولو الأهبة، وحديث النبي أعلى أسلوب عربي بعده، لأنه كلام سيد الخلق وأفصح العرب، معجزته القرآن الذي يتحدى أمراء البيان، وهو مكلف بتعليمه وتفسيره، فالقرآن والحديث متواصلان.. قالت أم معبد عن كلامه عليه الصلاة والسلام: (إذا تكلم سما وعلاه البهاء. وكأن منطقه خرزات نظم يتحدون: حلو المنطق، فصل، لا نزر، ولا هذر).

ولقد نزل القرآن مفرقا ليقرأ على الناس على مكث، ليحفظوه ويفهموه ويتعلموا أحكامه. نزل نحو ثلثيه بمكة حيث أقام الرسول ثلاثة عشر عاما بعد البعثة. ونزل نحو ثلثه بالمدينة حيث أقام نحوا من عشر سنين بعد الهجرة.. يقول ابن مسعود (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لا يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن).

وروت عائشة رضي الله عنها أن النبي: "لم يكن يفسر شيئا من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل" وفسر بعض الصحابة بعض الآي من كتاب الله، كعلي وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، مجتهدين أو راوين.

ورويت تفسيرات ابن عباس بمكة [٢٥] وتفسيرات ابن مسعود بالكوفة. وروى المصريون ما أثروا عن مشيخة الصحابة الذين سافروا إلى مصر. ومن العلماء من فسروا ملتزمين ما نقل عن الرسول أو الوقائع التي وقعت. وهؤلاء مفسرون بالمنقول. ومن الآخرين من يستند إلى العقل فيطلق العنان لاجتهاداته: الأولون يفسرون والآخرون يؤولون.

والإعجاز ثابت للكتاب الكريم بعجز القدرة الإنسانية عن قول مثله، واستمرار هذا العجز مع استمرار الزمن، وتقدم العالم. فالعالم في عجز عن صنع مثله أبدا.. إعجازه في ألفاظه، وفي عباراته، وفي معانيه. وفي اجتماع هذه الوجوه، على أعلى مستوى، مع خصائص الفصاحة في ألفاظ كأنها السلسال، ومع البلاغة في المعاني والمواعظ ومضارب الأمثال والقصص والخبر

---

(٢٥) جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن "المأمون" فتاوى ابن عباس – جده – في عشرين كتابا – وروى عنه ١٦٧٠ حديثا.

والأوامر والنواهي، ومع موسيقى اللفظ وجرسه – تخاطب الأذن والعين والعقل، بألفاظ فيها حياة، واطراد نسق واتزان، مقطعا مقطعا ونبرة نبرة، وكأن النفس توقعه توقيعا ولا تتلوه مجرد تلاوة.

فالحرف من القرآن معجز في موضعه، يمسك الكلمة التي هو فيها، ليمسك بها الآية والآي، فيؤدي للسامع صوت النفس، وصوت الفكر، وصوت الحس، في الألفاظ والمعاني.

ذلك قول الله جل شأنه. لا يؤلف برهانه تأليف المنطقي العادي من مقدمة صغرى وكبرى ونتيجة. ولا يثير مسائل الفلاسفة يفصلها ويبني عليها، لأن الدين لم ينزل للفلاسفة أو العلماء وحدهم، فهم فئة قليلة.. إنما اعتمد القرآن على الفطرة والعاطفة وهما قدر مشترك بين الناس جميعا. وهو قد أنزل للناس جميعا.

والعرب ذوو لسن وبلاغة، ولهذا جاء القرآن معجزة في البيان العربي، فشده أمراء البيان منهم، فتطامنوا لبلاغته وصاروا يسلمون عندما يسمعونه. ومن أجل ذلك كان تفسير القرآن أعظم علوم الإسلام، لمكانة القرآن من الإسلام. ومن واجب المفسر، والفقيه، أن يعرف أسباب نزول آيات القرآن وناسخه ومنسوخه وموارد النصوص والكلمات ومعانيها وأهدافها.

***

والآيات تزيد على ستة آلاف ومائتين، مع تفاوت أصحاب الإحصاء من جراء ما يراه البعض آية هي عند غيره في الحساب آيتان، دون خلاف في نفس الآية وجوهرها، في حين أن آيات الأحكام التي تدور حولها بحوث الفقهاء لا تتجاوز الخمسمائة أو تتجاوها بقليل حسب اختلاف العدد كما ذكرنا. وأكثر الآي في العبادات.. ولا يفهم المئات ومراميها، من لا يعرف الآلاف وألفاظها، وتعبيراتها ونظمها، وأسبابها وأغراضها أصدق الفهم.

كان الصحابة أقدر الناس بعد النبي على فهم القرآن ومع ذلك اختلفوا واحتاجوا للتفسير. سأل أبو بكر رسول الله: كيف الصلاح بعد هذه الآية "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به". فكل سوء عملنا جزينا به؟ فقال "غفر الله بك يا أبا بكر – ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فهو ما تجزون به".

وكان النبي يوضح معنى اللفظ الغريب في القرآن. كأن تكون الألفاظ مستعملة على وجه غير وجهها الذي ألفوه مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية، أو يكون سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذي يفهم من ذات اللفظ إلى غير ذلك.

وابن عباس يقول: (القرآن ذلول، فاحملوه على أحسن وجوهه) أي فسروه بخير ما يحتمله اللفظ ويليق به المعنى. ولقد أمكنه من التفسير معرفته الحديث والآثار وأسباب النزول. وأمكنه إلمامه العظيم باللغة وبالشعر من إدراك المعنى اللفظي للقرآن [٢٦]:

---

(٢٦) وبهذا أصبح زعيم المفسرين، يلتمسون الإلهام من جوار، كمثل ما صنع الزمخشري إذ جاور بمكة فوضع تفسير، "الكشاف" وقال:

وتم لي الكشاف ثم ببلدة بها هبط التنزيل للحق كاشفا
وزرت ابن عباس بوج يدي عند رأس الحبر منه طرائفا

بوج: مكان بالطائف.

بعثه علي رضي الله عنه يجادل الخوارج، فقال له: جاججهم بالسنة ولا تحاججهم بالقرآن حتى لا يختلفوا عليك. قال ابن عباس: أنا أناقشهم بالقرآن. ففي بيتنا نزل.. قال علي: نعم. ولكن القرآن حمال تقول كذا ويقولون كذا. ولكن حاججهم بالسنة فلا يستطيعون.

فذهب وناقشهم بالسنة – فالسنة أعمال محددة أو أقوال مبينة مجمل الكتاب – فغلبهم بذلك.

قال: بعضهم لابن عباس: ما رأيت أذكى منك. قال: لكني ما رأيت أذكى من علي بن أبي طالب.

قيل له يوما: أين علمك من علم ابن عمك (علي) قال: قطرة من الماء إلى جوار البحر المحيط!

وابن عباس مع ذلك هو الحبر أو البحر كما وصفوه: أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم جميعا في واد واسع. يفسر كثيرا من الآيات بألفاظ الشعر الجاهلي ويقول: (إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي) كان إذا سئل أجاب.. فإن كان من القرآن أخبر به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله أخبر به. فإن لم يكن وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به، فإن لم يكن قال برأيه.

وسئل ابن عمر عن قوله تعالى: (كانتا رتقا ففتقناهما) فقال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله. فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال: كانت السماء ترقا لا تمطر، والأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبت. فرجع الرجل فأخبر ابن عمر فقال: لقد أوتي ابن عباس علما صدقا.

وفي الكتاب العزيز: "آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات" وإذا فسرت المحكمات بأنها المكشوفة المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال أو احتمال، فإن المتشابه هو الذي يتطرق إليه الاحتمال. وفيه ألفاظ تحتمل أكثر من معنى، فتحتمل الخلاف والاجتهاد، تبعا للسياق والفهم.

وفي اللغة ترادف، كأن تعبر كلمتان أو أكثر عن مفهوم واحد، وفيها اشتراك، وهو ان تعبر كلمة عن مفهومين أو أكثر. وفيها دقائق لا يدركها العامة، وتختلف فيها الأفهام.. فالعرب شعبان عظيمان هما: عدنان وقحطان. ولكل قبائل شتى وبطون متفرقة. وربما اصطلحت قبيلة على أن تريد بكلمة مسمى واصطلحت أخرى على أن تريد بكلمة مسمى آخر. وينقل الناقلون اللغة فلا ينسبون كل معنى لقبيلته، وبهذا قام اختلاف كبير. ومن أسباب الاختلاف أن يكون بين الكلمتين معنى يجمعهما فتصلح الكلمة لكل منهما وهذا ما يسمونه بالاشتراك المعنوي. وقد ينقل الناس ذلك المعنى الجامع فيظنون من قبيل المشترك اللفظي.

وقد توضع الكلمة في الأصل لمعنى، ثم يتجوز بها إلى معنى آخر لعلاقة، ثم تزول هذه العلاقة أو تنسى، فيظن أن الكلمة وضعت لكل من المعنيين. وقد توضع الكلمة لمسمى، وعند الإشارة إليه يكون معه غيره فيتلقى السامع الكلمة من غير أن يتأكد حقيقة ما وضعت له، ثم يستعمل الكلمة في الشيء وفيما كان معه أو فيهما جميعا، وربما ينفصلان فيما بعد. وقليل من أهل اللغة من عني بالفصل بين المعاني الحقيقية والمجازية للألفاظ.

والكتاب الكريم مصدر الشريعة وعمدتها. وليس إعجازه بمخرجه عن العربية التي تتناولها الأفهام. قال تعالى (قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وقال (بلسان عربي مبين).

وإذا ورد لفظ مشترك في التشريع اقترن به ما يبين المراد. سواء قرينة حالية أو مقالية.

كان المفتون من أصحاب الرسول على علم باللغة وأسباب نزول النصوص إلى جوار ما أتاح لهم فضل الصحبة من هدى النبي، وصفاء النفس وحدة الذهن، وتبع التابعون بإحسان. ومع ذلك ففي العهد ذاته دخل رجل من العامة على أمير المؤمنين علي يقول له: (قتل الناس عثمان) قال (بين الفاعل من المفعول. رض الله فاك) وقالوا: إن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئا يقرأ (إن الله برئ من المشركين ورسولِه) فكان هذا سببا في وضع علامات الإعراب على المصحف. ورأى علي الحاجة ماسة إلى إملاء قواعد للنحو على أبي الأسود.

وفي نهاية القرن الأول، رأى عمر بن عبد العزيز قوما من الفرس ينظرون في النحو العربي فقال: (لئن أصلحتموه لأنتم أول من أفسده).

***

لقد نشأت أجيال لم تعد اللغة سليقة لهم، بل كانوا يتعلمونها ويعلمونها، خشية أن تضيع أو يغمرها سيل العجمة باتساع رقعة الدولة وإسلام الإعاجم. كما خيف ترك الإعراب أو تحويل الألفاظ عن شكلها أو الاقتصار على ما يسهل منها على السمع – فبدأ تدوين اللغة. وكان لزاما أن توضع قوانين لاستنباط الأحكام الفقهية من مصادرها. فبدأ تدوين الفقه على نطاق واسع بعمل أبي حنيفة، وعلى نطاق ضيق فقي موطأ مالك في النصف الأول من القرن الثاني. وكذلك بدأ جمع اللغة على أيدي أئمة اللغة الذين شافهوا العرب البلغاء وفهموا عنهم مناحي التعبير.

وبهذا تلازم الاهتمام باللغة وتدوين الفقه، وإن كانت الصدارة للفقه، لأن الإسلام في صميمه هو فقهه في العبادات والمعاملات – ودل اهتمام العرب بلغتهم على مكانتها من دينهم ودنياهم ودولتهم.

كانوا قبائل متباعدة لهجاتها متعددة. وحدها قيام الأواصر الجديدة من الدين والدولة؛ ورفعهم كتابهم إلى مستوى عال لإدراك لغة المعجزة، من ألفاظ هي ألفاظ الكثرة في الجاهلية، لكن تراكيبها ونظمها ومعانيها أعلى مما يقدرون عليه، فانتقلت اللغة العربية كالحضارة العربية إلى فلك آخر، وبقي الاتصال الزمني بين القرآن وبين البيئة التي عاصرت نزوله واضحا في الألفاظ المستعملة والإشارات المستنتجة وجملة الأسلوب الذي وجه إلى العرب.. لا يدركه حق إدراكه إلا من أدرك أكبر قدر من اللغة وأساليب الحياة وأسبابها حينئذ.

وتعاظم الاهتمام باللغة لدى العلماء والمتعلمين والدولة.. فوجدنا الرواة الكبار للأدب الجاهلي والعلماء الكبار من واضعي قواعد النحو والبيان في ندامة الخلفاء أو تعليم بنيهم، أو روادا لعطاياهم الدارة، أو وزراء وحجابا وكتابا، أي أن هذه التبعات أصبحت مسئولية حكومية.

غاب الأصمعي عن الرشيد فسأله: يا أصمعي كيف أنت بعدنا؟

فأجاب: والله ما لاقتني بعدك أرض يا أمير المؤمنين.

فتبسم، ولم يقل شيئا. حتى إذا كان وقت الرحيل استبقاه الرشيد. وأمر غلمانه بأن يأخذوا عليهم الباب ثم سأله: ما معنى قولك ما لاقتني أرض؟

فأجاب: ما استقرت. كما يقال فلان لا يليق شيئا: أي لا يستقر معه شيء. فتبسم الرشيد وقال: هذا حسن، ولكن ينبغي ألا تكلمني بين يدي الناس إلا بما أفهمه. فإذا خلوت فعلمني.

هكذا أدب الرشيد أديبه. فآفة النصح أن يكون جدالا، أو يكون جهازا.

ووجدنا كثرة النوابغ في الشعر والأدب يجمعون الكنوز لأنفسهم مثل المفضل الضبي معلم المهدي، يجمع في المفضليات نحو ١٢٨ قصيدة من الجاهلية، والأصمعي يصحب في رحلاته مع الرشيد مكتبة كاملة، وأبي تمام يجمع ديوانا من أشعار الجاهلية، ثم تلميذه البحتري يجمع لنفسه ديوانا آخر، ثم المتنبي يجمع دواوين السابقين.

ووجدنا علماء كالخليل بن أحمد (١٧٥) يتعلم في البادية ويضع معجما للغة وعلم العروض وقواعد النحو في اللغة على أساس القياس. ووجدنا كبار النحاة على أثره.

مثل سيبويه، والرؤاسي وتلميذيه الكسائي والفراء وكيرين غيرهم، يسبقهم ويلحقهم رهط من علماء اللغة والأدب مثل أبي عمرو بن العلاء صاحب إحدى القراءات (١٥٤) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠) وسيتبعهم أبناؤهم الفكريون لا يكادون يحصون، يعملون جاهدين في حقول اللغة والأدب ومعاني القرآن ومتشابه القرآن، ومجاز القرآن، وغريب القرآن، وما يمت إلى شيء من هذا بسبب.

وفي الوقت ذاته، انتقل محمد بن إدريس الشافعي إلى البادية ليظفر بما لم يظفر به غيره من الأخبار والسير وفصيح شعر الجاهلية والإسلام.

سلم العرب أن القرآن معجز. فلم يجاره أو يحاول مجاراته أحد، والذين تصدوا لذلك من الكذبة والمتنبئين سجعوا أسجاع كهان مزرية.

ولما تحدى القرآن العرب أن يجيئوا بسورة من مثله – والبلاغة خصيصتهم – تحداهم في كبرى مفاخرهم، فطأطأوا الرءوس.

يرى الجاحظ الإعجاز القرآني في (نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله البعاد) ويقول (لو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه).

وانتهى إلى غير قول أستاذه "النظام" (بالصرفة) أي صرف الناس عن محاولة الإتيان بمثله. فهو عند الجاحظ معجز ينظمه، وباشتماله على ألوان بديعية رائعة.

وفي القرن الثالث كتب ابن قتيبة (٢٧٦) "تأويل مشكل القرآن" ليبين ما غمض فيه على غير العارفين، وتحدث عن المجاز، والاستعارة، والحذف، والكناية، والتعريض، ومخالفة ظاهر اللفظ لمعناه، وعن اللغة كأداة للتعبير. يقول: (وإنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره واتسع علمه وفهم مذاهب الرعب واقتنائها في الأساليب وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات).

أما الطبري (٣١٠) فيرى الإعجاز القرآني في بديع نظمه، والتأليف الذي أعجز العرب، مع أنه بلغتهم، ولفظ كلفظهم. والزمخشري (٣٥٨) والمفسرون معه يرون الإعجاز للنظم البديعة، والمعاني الراقية، والألفاظ المتلائمة. والسكاكي (٦٢٦) يرى: أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت، ولا يدرك تحصيله إلا بإتقان علمي المعاني والبيان، والحذق بهما.

هو على الجملة أصح لفظ. في أحسن نظم في التأليف. وفيه أصح المعاني وأرقاها. معجز بلفظه ونظمه وتركيب عباراته وألفاظه، مفردة، ومركبة، وموسيقاها، معجز بمعانيه السامية

المتلائمة بكلماتها مع المعنى العام وسائر الكلام، معجز بأثره في النفوس من أدبه وبلاغته [٢٧]. أعجز الشعراء وليس بشعر، وأعجز الخطباء وليس بخطبة. وأعجز المترسلين، وليس بترسل. ولذلك انتهى البعض إلى أن الكلام في اللسان العربي: شعر ونثر وقرآن [٢٨].

---

(٢٧) في القرنين الثالث والرابع ألف في إعجاز القرآن الواسطي (٣٠٦) والرماني (٣٨٤) والخطابي (٣٨٨). فالرماني يرى الإعجاز القرآني للبلاغة التي توصل المعاني إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. والخطابي يقول (لا نرى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا نرى نظما أحسن تألفا ولا أشد تلازما وتشاكلا من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها. وقد توجد هذه الفضائل متفرقة في أنواع الكلام. فأما أن توجد مجموعة فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا).

وفي أواخر القرن رأى الجرجاني (٤٧١) صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة أن إعجاز القرآن يكمن في النظم الذي يفوق كل نظم بتأليفه ونسجه ومزاياه التي يحتويها.

يقول الجرجاني: (ولا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا.. بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدها واحدة واحدة وتسميها شيئا شيئا) ويرى البلاغة في تآخي المعاني وتناسقها دون أن تعطي المزية للمعنى على اللفظ. فالصياغة عنده هي التي يتفاضل بها الكلام، واختلافها يدل على معان مختلفة. فالإعجاز عنده تلاؤم المعاني في الكلمات المفردة تلاؤما يساعد على أداء المعنى. المقصود في جمال وقدرة. بفضل علم النحو بمعناه الواسع بما فيه علوم البلاغة والإعراب والبيان وبناء الكلمات – والفضيلة تثبت للألفاظ (بملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك) فالإعجاز بهذا موضوعي.

البلاغة والتفسير:

من أجل ذلك يقول أبو هلال العسكري (٣٩٥) "إن أحق العلوم وأولاها بالحفظ – بعد المعرفة بالله جل ثناؤه – علم البلاغة. ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى".

وفي الفصحى حذف كأنه الإثبات أو التكرار في أثره. وهو أفصح من الذكر أحيانا. والصمت أبلغ من القول في مواقع. وفيها نفي الشيء بإيجابه، وفيها حذف للسؤال، وحذف

---

(٢٨) في أوائل القرن السادس وضع الزمخشري صاحب "أساس البلاغة" تفسير "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" بعد إذ بلغ أعلى مرتبة في النحو واللغة ونظم الشعر والأدب والعلم والسير والفقه، وشرح قصيدة الشنفرى الموسمة بلامية العرب. ومع أنه نهج في التفسير نهج المعتزلة، فالإجماع على أنه عمل عظيم في اللغة وفيه يقول: (فالفقيه وإن برز على الأقران.. والمتكلم.. وحافظ القصص والأخبار.. والنحوي.. واللغوي.. لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطريق.. إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان.. بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ..)

وفي القرن السابع جمع ابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤) الألوان البديعية التي عرفت قبله وأضاف إليها دراسات لبديع القرآن، واستشهادات من الشعر مع بيان وجوه الحسن في السور والآيات وائتلافها وموسيقاها، وبيان الألفاظ مفردة ومركبة. وتأليف الجملة والجمل، والتقارب فيها والانسجام بين ألفاظها مفردة ومجتمعة كأنها تجري على وزن خاص خذ مثلا.. أو مثلين: لقد وجد في سبعة عشر لفظا ثمانية عشر ضربا من البلاغة سوى ما تعدد منها مثل الاستعارة ذاتها تعددت في موضعين. ذلك قوله تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين".

ووجد في عشرة ألفاظ أربعة عشر نوعا من البديع، في قوله تعالى: (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة).

للجواب، وقد يحذف المضاف ويبقى المضاف إليه. ولها إسناد مباشر تمتاز به، ولها وشي أو زخرف إذا صادف المعنى جلاه وحلاه، ويكفي فيها الحرف الواحد يضاف إلى الكلمة ليغير المعنى أو يجسمه، وكثيرا ما تدل حركة فيها على المعنى. والتقديم والتأخير مزايا بيانية بالغة. وكما يقول ابن خلدون (لكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة) – وفيها للمعنى الواحد ألفاظ عدة، تدل عليه، أو على درجاته، إيجازا في التعبير وتحديدا للإبانة. فاللغة العربية بين اللغات الحية أقدمها وأدومها وأغناها، أو كما قال الشافعي: (أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا. ولا نعلمه يحيط بجميع علمه غير نبي).

والأسلوب البليغ ينتظم النظم المناسب لمعانيه فيختار أخص الألفاظ بالمعنى وأكثرها كشفا عنه ليضعها مواضعها، ويصل الجمل ويفصلها، وللوصل والفصل بين الجمل قوة تعبيرية من خصائص البلاغة العربية.

يقول الجرجاني (اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجئ بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص).

والأسلوب الفصيح يستمد وصفه من اللبن الفصيح الخالص من رغوته أو لبئه، فيسلم من ضعف التأليف وسماحة التركيب، ويزدان بالرونق والطلاوة ويجمع بين العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة.. أو كما قال الجاحظ: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزع عن التكلف، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن السوقي".

ومن الأساليب الحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية. وفيها المحسنات البديعية، من جناس وطباق ومبالغة، وإخراج الممكن إلى الممتنع، وإخراج الكلام مخرج الشك أو الاستنكار أو التنكيت أو التبكيت أو التأكيد، إلى غير ذلك من فنون البلاغة التي لا تتناهى، مقرونة بجمال النظم وعذوبة اللفظ وعظم الفائدة وصحة الدلالة، وتلاؤم الكلام في السمع والعقل والعين.

ومن الأساليب إطناب وإيجاز. تكلم عمار بن ياسر يوما فأوجز فقيل له: لو زدتنا؟ قال "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة وقصر الخطبة".

وقالوا: البلاغة الإيجاز.

والعرب بطبيعتهم بلغاء.. وقف أرابي على حلقة الحسن البصري فقال: رحم الله من تصدق من فضل، أو واسى من كفاف، أو آثر من قوت، فقال الحسن: ما ترك الأعرابي منكم أحدا حتى عمه بالمسألة.

والجاحظ ينشد في هذا الموضع:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

ولا يقدر على التصدي للنصوص القرآنية ونصوص الأحاديث، من لم يدرك أسرار العربية الفصحى فاستحال أو شق التفسير عليه. قال ابن عباس نفسه ما كنت أدري معنى (فاطر السموات والأرض) حتى سمعت امرأة من العرب تقول: أنا فطرته – أي ابتدأته –... بل قد يعجز عن الفهم من لم يتزود بفنون اللغة. وحسبنا في ذلك كلمة الزمخشري الجامعة، وقد دلل

على صدقها بما صنعه. قال: (فإن الإعراب أجدى. ومن لم يتق الله في تنزيله فاجترأ على تعاطي تأويله وهو غير معرب، ركب عمياء وخبط عشواء).

في القرن الثاني للهجرة شق على كثيرين فهم بعض أساليب القرآن. فكانوا يسألون العارفين بلغة العرب وأساليبها، وكان المعلمون الأولون لعوم اللغة هم الأساتذة الكبار في البصرة والكوفة.

أرسل الفضل بن الربيع والي البصرة إلى أبي عبيدة فدخل عليه، ثم دخل رجل في زي الكتاب قال: إني كنت إليك مشتاقا، وقد سألت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ قال أبو عبيدة: هات. قال: قال الله عز وجل "طلعها كأنه رؤوس الشياطين" وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله. وهذا لم يعرف.

قال أبو عبيدة: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل. فعزم أبو عبيدة أن يضع كتابا في القرآن، في مثل هذا وأشباهه. ووضع (المجاز) يقصد "الطريق" لمعرفة القرآن، وأكثر فيه الاستشهاد بمنثور العرب ومنظومهم.

وألف أبو عبيدة كذلك (معاني القرآن) و(غريب القرآن) و(غريب الحديث) ومن قبله ألف عبد الحميد بن يحيى (١٣٢) في مجاز القرآن. ثم ألف قطرب (محمد ابن المستنير) (٢٠٦) معاني القرآن، وألف الكسائي (١٨٩) "معاني القرآن" و"كتاب القراءات" وألف الفراء (٢٠٧)

وتلميذه سلمة بن عاصم، وسعيد الأنصاري (٢١٥) والأخفش (٢١٥) وألف الجاحظ (نظم القرآن) (والمسائل في القرآن) وألف مثله معتزلة آخرون من قبله. مثل واصل بن عطاء (١٣٨) ومن بعده، مثل الرماني والزمخشري – وألف ثعلب كتاب (معاني القرآن) وكتاب (غريب القرآن) وألف المبرد (ما اتفق نطقه واختلف معناه من القرآن المجيد). وتتابعت الكتب فلا تكاد تجد في القرون الأولى أديبا كبيرا لم يتبحر في لغة القرآن وأسلوبه.

الشعر والتفسير:

الشعر مضمار البلاغة بإيجازه وحشده المعاني والصور في أضيق نطاق، وقوة تأثير الكلمات المنظومة والعبارة الموزونة. لذلك غدا الميدان الطبيعي لفرسان البلاغة، والثبت الحافل بروائع التعبير. يقول الجرجاني: (الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، الذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيها قصب الرهان) وعلى من يريد أن يعرف وجه إعجاز القرآن أن (يبحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشعر على بعض) بل إنه ليرى الصاد عن الشعر (صادا عن أن يعرف حجة الله تعالى).

وتذيع الكلمة المنظومة فتحدث أعظم الأثر. قال كعب بن زهير بن أبي سلمى أبياتا ضد أخيه بجير عندما أسلم، وأنشدها بجير النبي وأجاب بأبيات أخرى، ثم بعث إلى أخيه "أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقتل أحدا جاء تائبا". فأتى رجل جلس إلى النبي قال: يا رسول الله إن كعب بن زهير أتاك تائبا فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال نعم. فأنا كعب.. فأنشد في

مدح النبي قصيدة "بانت سعاد"، وقد سلف المقال فيها، وفي احتفاله عليه الصلاة والسلام بأمر الشعر.

حوى شعر الجاهلية أخبار العرب، وكان شعر الفتوح الإسلامية ديوان وقائعها وأبطالها من الشعراء، مثل عمرو بن معديكرب والقعقاع بن عمرو، وفيه قول أبي بكر: "لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل" ولم يستطع العرب بعد الإسلام أن ينشغلوا عن الشعر. وإن كان من الصحابة من تبدل به حفظ الكتاب العزيز كما استعاض لبيد عن الشعر بسورة البقرة. ونصح علي أبا الفرزدق أن يحفظه القرآن.. ومع ذلك صار الفرزدق شاعر العصر. وكان علي يقول الشعر.

ولا يعاب من الشعر إلا شعر الهائمين في غير أودية الفضيلة. قالوا: لم يمتنع النبي عن تعلم الشعر إلا كمثل أنه لم يتعلم الخط، فكان لا يقرأ ولا يكتب، لتكون الحجة كما يقول الجرجاني: (أبهر وأقهر، والدلالة بها أقوى وأظهر).

ولم يتخذ الجرجاني، كالأصمعي، النثر المأثور مصدرا من المصادر التي يستنبط منها قوانين البلاغة. وأكثر المفسرون عموما من الاستشهاد بشعر الجاهلية وشعر امرئ القيس في تفسير القرآن وغريبه وغريب الحديث.

والشعر رسم العرب وموسيقاهم وفنهم، وديوان أخبارهم.. خذ مثلا شعر المعلقات، أو الأراجيز أو خطب الجاهلية، أو الأشعار التي رواها الأصمعي أو حماد أو غيرهما، هي فوق أنها جامعة أخبار العرب وتاريخهم ووقائعهم ولغتهم وصور حياتهم، رسوم ناطقة مثل جواد امرئ القيس، أو وصف المحبوب أو مشيته أو صورته أو الغزال الخائف. وأمثال ذلك لا حصر لها ناقلة للواقع في وضوح شفاف وجزالة معبرة – فالصدق التسجيلي أو التطابق الهندسي من

خصائص الشعر الجاهلي. وأمثلة ذلك تترى في شعر الهذليين والجاحظ يقول: (وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير).

والأعرابي – كأمير المؤمنين، كعالم الطب والفلك – يدهور البيت من الشعر بين شدقيه كالحلوى وكاللحن، وينظم الروائع.

لكم سمع النبي الشعر واستنشده، كما أسلفنا المقال.. وذات يوم أنشده العباس ابن مرداس شاكيا إعطاءه من غنائم حنين أقل من الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ـد [٢٩] بين عيينة والأقرع

فقال عليه السلام: يا علي أقطع لسانه عني. فقبض على يده وخرج به.

فقال: أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن؟ فقال علي: إني لممض فيك ما أمر. ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال: خذ ما أحببت.

هكذا تظهر المعاني وتغيب حسب إدراك السامع للأساليب.

كان عمر على المنبر فقرأ قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) ثم سأل عن معنى التخوف. فقال له رجل من هذي: هو عندنا التنقص. وأنشد قول الشاعر

---

(٢٩)

تخــوف الرحــل منهــا نامكــا قفــردا كمــا تخــوف عــود النبعــة الســفن

(السفن الحديدة يبرد بها خشب القوس. والقرد الكثير القرد. والنامك العظيم.

والعرب تقول: تخوف ماله الإنفاق. أي أنفقه جزءا جزءا.

وقال عمر ليلة لعبد الله بن العباس وهم سائرون إلى الشام: أنشدني شعر اشعر القوم. قال: ومن ذاك؟ قال: زهير. قال بم استحق عندك ذلك يا أمير المؤمنين؟

قال: رأيته لا يفاضل بين الكلام، ولا يتبع حوشي الألفاظ، ولا يمدح الرجال إلا بما يكون للرجال. وما ذاك إلا لتنقيحه شعره وترداد نظره في كلامه..

ولقد صدق الفاروق. فزهير هو القائل:

وإن أشــعر بيــت أنــت قائلــه بيــت يقــال إذا أنشــدته، صــدقا

وكان عمر مشهورا بالرواية وبراعة الاستشهاد بالشعر. تمثل مرة بشعر ثم قال لفرات بن زيد الليثي: أتدري من يقوله؟ قال لا أدري.. قال عمر: هذا شعر أخيك قسامة بن زيد.. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: مر من قبلك بتعلم الشعر. فإنه يدل على معاني الأخلاق. وصواب الرأي. ومعرفة الأنساب.

وأشار المسلمون على النبي بأن يعهد إلى علي بالرد على المشركين شعرا فلم ير ذلك قال: لا. ليس هناك.

وكان على يستشهد بالشعر. كما مر بنا وكما استعان ببيت الأعشى في خطبته المعروفة بالشقشقية حيث يقول:

شـتان مـا يـومي علـى كورهـا ويـــوم حيـــان أخـــي جـــابر

وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب.

قال المهاجرون لعمر: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ قال: ذاكم فتى الكهول. له لسان سئول وقلب عقول.

أسباب التنزيل:

ومعرفة أسباب التنزيل لازمة لمن رام علم القرآن: فمقتضيات الأحوال وجه من وجوه توضيح إعجازه. والجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبهة.. وليس كعمر وابن عباس أدلة.

اتهم عمر قدامة بن مظعون بشرب الخمر، وأراد عمر جلده فقال قدامة: والله لو شربت الخمر كما يقولون، ما كان لك أن تجلدني لأن الله يقول: "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين" وأنا منهم.

قال عمر: ألا تردون على هذا؟

فقال ابن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عذرا للماضين وحجة على الباقين، لأن الله يقول: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر. قال عمر: صدقت.

كذلك يتعين أن يعرف دارس القرآن والسنة، عادات العرب وأحوالها وأقوالها حالة التنزيل، وإلا وقع في الشبهة.

ولا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع، ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وملابساتها.

ومن عرف التنزيل عرف أيام الإسلام العظمى ووحي السماء إذ كان يوحي، فسما في حسه الروحي وتقديره الفكري إلى أعلى الذرى، استمتاعا وإيمانا وفهما، والإحاطة بها – قبل كل هذا – ضرورة منهجية تتعلق بالأساس.

وكثير من أسباب التنزيل يروي فيه عن ابن عباس فعل أو مقال.

خذ مثلا على أن من يعرف سبب نزول الآية غير من لا يعرف: تفسير كلمة الميت في هذه الآية "أو من كان ميتا فأحييناه" فإن معناها الظاهر أن رجلا ميتا ردت عليه الحياة. لكنها نزلت في حمزة عم النبي إذا أسلم بعد أن كان مشركا. قال ابن عباس: يريد حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث، وحمزة لم يؤمن بعد، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه ويقول:

يا أبا يعلى. أما ترى ما جاء به. سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا.

قال حمزة – بطل أحد وشهيدها فيما بعد: ومن أسفه منكم: تعبدون الحجارة من دون الله! أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله.

فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومثلا آخر: أهل بيت رسول الله إذ الوحي ينزل بالآية الكريمة: "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا" عن ابن عباس أيضا وفي صدد أستاذه: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه آجر نفسه يسقي نخلا بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، وقبض الشعير وطحن ثلثه، فجعلوا منه شيئا ليأكلوه يقال له الخزيرة، فلما تم إنضاجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام. ثم عمل الثلث الثاني،

فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي، فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين، فأطعموه وطووا يومهم ذلك فأنزلت هذه الآية.

ومثلا ثالثا عن الصحابة: عن عبد الله بن عمر قال: أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم راس شاة. فقال: إن أخي فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحدا إلى آخر حتى تداوله سبعة أهل أبيات، حتى رجعت إلى أولئك. قال فنزلت فيهم الآية: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة).

قال مروان بن الحكم وهو والي المدينة يوما لأبي سعيد الخدري وزيد بن ثابت ورافع بن خديج عنده: أرأيت قوله تعالى: "لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا" والله إنا لنفرح بما أوتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل؟.. قال أبو سعيد: ليس هذا في هذا. إنما كان رجال يتخلفون عن الرسول وعن أصحابه في المغازي، فإذا كانت النكبة وما يكره، فرحوا بتخلفهم. فإذا كان فيها ما يبحون، حلفوا لهم وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا.!

***

وسنرى بعد، كيف كان الشعر والبلاغة ومعرفة السنن والسير، قوة ضاربة في يد محمد بن إدريس. فلم يك في عصره أحد أجدر منه بقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله أهلين من الناس" قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: "أهل القرآن أهل الله وخاصته".

الفصل الثاني

في فناء زمزم

رأس محمد بن إدريس بمكة حلقة كانت في انتظاره من بضعة عشر عاما، لم تشهد مثلها البلدة المباركة، من عهد ترجمان القرآن: عبد الله بن عباس.

في هذه الحلقة، جلس رجل في عنفوان شبابه. طوال حسن الخلق، نظيف الثياب محبب إلى الناس، فصيح اللسان، كثير الإحسان إلى الخلق، شديد المهابة، حسن التلاوة للقرآن قوى البيان، لا يضارع فيه أحد. قالوا عن فصاحته (إذا حدث كأنما يقرأ سورة من القرآن).

وسيبقى في هذه الحلقة بضع عشرة سنة، فتظفر البلدة المباركة بأطول مدة قضاها في التدريس في عاصمة من عواصم الإسلام، ويظفر هو بالإدراك الدقيق والحس العميق المنبعث من جواره للكعبة.

وكان أقدر الأئمة في تفسير القرآن وأوضحهم حجة فيما فسر معتمدا على الأخبار الثابتة والبرهان الذي يؤدي إليه اللسان العربي، مزودا بأشعار العرب وآثار السلف من الصحابة والتابعين. وكانت في حوزته كتب العراقيين، فعكف على مراجعتها وتفنيد ما يستحق التفنيد منها، وبدأ تأخذ الطريق إلى الظهور مدرسة جديدة في الفقه.

كان الفقهاء جد حريصين إذ يفسرون أو يفتون. ومن قبل، قال الصديق في الكلالة برأيه وأضاف: (فإن يك صوابا فمن الله وإن يك خطأ فمتى ومن الشيطان) وقال (أي أرض تقلني وأي

سماء تظلني، إن قلت في القرآن ما لم أعلم). وذات يوم خرج علي إلى أصحابه وهو يمسح بطنه ويقول: يا بردها على الكبد! سئلت عما أعلم، فقلت لا أعلم والله أعلم.

وسئل ابن عباس مرة فقال: لا أدري. قال السائل: قل فيها برأيك. قال ابن عباس (إني أخاف أن أقول فيها برأيي فتزل قدم بعد ثبوتها).

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ما منهم رجل يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه، ولا يحدث حديثا إلا ود أن أخاه كفاه.

وسئل مالك عن ثمانية وأربعين مسألة، فقال (لا أدري) في اثنتين وثلاثين.

ولقد كان يقال أجرأ الناس على الفتيا أدناهم علما! قال سحنون: إني لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال، من ثمانية أئمة من العلماء.. فلم ألام على حبس الجواب؟

وكان الأصمعي شديد التأله – التنسك – لا يفسر شيئا من القرآن ولا شيئا من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن وكذا الحديث. ويؤثر أن يقول (العرب تقول: معنى هذا كذا. ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو) [٣٠].

---

(٣٠) بلغ أبا عبيدة أن الأصمعي يعيب عليه تأليف كتاب (المجاز في القرآن) وأنه قال (يفسر ذلك برأيه!) فسأل عن مجلس الأصمعي.. وجلس عنده قال له: يا أبا سعيد ما تقوله في الخبز: قال هو الذي نخبز، ونأكله قال أبو عبيدة: فسرت كتاب الله برأيك قال تعالى: (أراني أحمل فوق رأسي خبزا) قال الأصمعي هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسر، برأيي. قال أبو عبيدة: وهذا الذي تعيبه علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسر، برأينا.

ومع ذلك استفاد من الأصمعي المفسرون. كمثل قوله: إن العرب تقول: فدى لك ثوبي تقصد نفسي. وأنشد دليلا على ذلك قول الشاعر:

ألا أبلـــغ أبـــا حفـــص رســـولا فـــدى لـــك مـــن أخـــي ثقـــة إزاري

وإنما يقصد بذلك نفسه فقوله تعالى: "وثيابك فطهر" مقصود به نفسه.

ولقد شرط العلماء في المفسر بضعة عشر علما، هي العلم باللغة، والنحو، والصرف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، والقراءات، والأصول، وأسباب النزول، والناسخ، والمنسوخ، والحديث، والفقه.

أما الشافعي فقد درس ذلك كله، وكل علم وجده، ومن كل مصدر: شيعيا كان، كمقاتل بن سليمان وكان يشيد بذكره [٣١]، أو معتزليا كإبراهيم بن أبي يحيى، وكان يبين أن إبراهيم قدري، أو حنفيا كمحمد بن الحسن. وبهذا تلاقت شتى الروافد في النهر العظيم الواحد لتصير مذهبا خالدا للمسلمين.

---

(٣١) لمقاتل مؤلفات كثيرة منها التفسير الكبير: كتاب الناسخ والمنسوخ، تفسير الخمسمائة آية، كتاب متشابه القرآن، كتاب نوادر التفسير، كتاب الجوابات في القرآن، كتاب الوجوه والنظائر، وكتاب الرد على القدرية، كتاب الأقسام واللغات، كتاب التقديم والتأخير، كتاب الآيات والمتشابهات. والشافعي يقول: (من أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك. ومن أراد الجدل فعليه بأبي حنيفة. ومن أراد التفسير فعليه بمقاتل بن سليمان) مات سنة ١٥٠ بالبصرة.

كان يدرك أن من ورع العالم العامل أن يتكلم، مثلما أن من ورع الجاهل العامل أن يسكت. وكانت آلات التفسير طوع بنانه من علمه بالسنة التي اكتملت لديه وفقه مدرسة الراق التي أسلمت كنوزها إليه. إلى جوار العلم بعلوم القرآن جميعا – وأولاها إمامته في اللغة.

قال: "وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي"..

قال الله: "وإنه لتنزيل رب العالمين.. بلسان عربي مبين".. وبعد أن أورد كثيرا من الآيات كمثلها قال: "فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها.

فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك.

وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسان من ختم نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرا له. كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ويأتي البيت وما أمر بإتيانه ويتوجه لما وجه له، ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعا.

فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها. وأن فطرته أن يخاطب بالشيء عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر. ويستغني بأول هذا منه عن آخره. وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب فيه. وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهر. وكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره.. وتبتدئ بالشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره. وتبتدئ بالشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله. وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح

باللفظ كما تعرفه بالإشارة. ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها. وتسمى الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة وتسمى بالاسم الواحد المعاني الكثيرة".

وانطلق الشافعي يفسر عن علم وثقة.

***

قال حرملة: سمعت الشافعي يقول في حديث عائشة "اشترطي لهم الولاء" معناه اشترطي عليهم. قال تعالى: "أولئك لهم اللعنة" بمعنى عليهم.

وقال حرملة: سمعت سفيان بن عيينة يقول في تفسير "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" قال يستغني به. قال الشافعي: ليس هو هكذا لو كان هكذا لقال: يتغاني. إنما هو يتحزن ويترنم به ويقرؤه حدرا (عدم تمطيط) وتحزينا (ترقيق الصوت الحزين). وقد سلف تفسيره لسفيان حديث (وأقروا الطير في مكناتها).

فكان يشير له كلما جاءه شيء من التفسير، ويقول: سلوا هذا.

كان سفيان يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به رجل في بعض الليل وهو مع امرأته صفية فقال: تعال هذه امرأتي صفية. فقال: سبحان الله يا رسول الله. قال النبي: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم. قال سفيان للشافعي: ما فقه هذا يا أبا عبد الله؟ قال: إن كان القوم اتهموا النبي كانوا بتهمتهم إياه كفارا. لكن النبي صلى الله عليه وسلم، أدب من بعده فقال: إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا. حتى لا يظن بكم ظن السوء. لا أن النبي يتهم وهو أمين الله عز وجل في أرضه. فقال: جزاك الله خيرا يا أبا عبد الله. ما يجيئنا منك إلا كل ما نحبه.

كان مجلس الشافعي قبالة ميزاب الكعبة.. فما زال المجلس يقدم حتى صار بقرب حلقة سفيان، أقدم الحلق لأعظم المحدثين.

قال قائل: كنت عند سفيان بن عيينة فقيل لي: (ها هنا فتى – يعني الشافعي – يقول عليكم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا الرأي. قال سفيان – جزى الله هذا من فتى خيرا.. قال الله تعالى "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى".

قالوا: كان إذا أخذ في التفسير، كأنه شاهد التنزيل، وذكروا أنه قال: نظرت بين دفتي المصحف، فعرفت مراد الله تعالى من جميع ما فيه إلا حرفين أشكلا علي (ونسي الراوي الحرف الأول وتذكر أن الثاني كلمة "دساها" في قوله تعالى "قد خاب من دساها" فإني لم أجده في كلام العرب. ثم قرأت لمقاتل بن سليمان، أنه لغة السودان وأن دساها أغواها.

وظاهر من تفسيره للآيات اقتدار أستاذ اللغة والأدب. خذ مثلا على ذلك تفسير قوله تعالى: "ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام".. يقول في الرسالة "وشطر جهته في كلام العرب. إذا قلت (أقصد شطر كذا) معروف أنك تقول: أقصد قصد عين كذا. يعني قصد نفس كذا. وكذلك (تلقاءه) جهته، أي استقبل تلقاءه وجهته، وقال خفاف ابن ندبة: [٣٢].

ألا من مبلغ عمرا رسولا وما تغني الرسالة شطر عمرو

---

(٣٢) ابن عم الخنساء. وهو من فرسان العرب وشعرائهم المخضرمين.

وقال ساعدة بن جؤية [٣٣]:

أقـــول لأم زنبـــاع أقيمـــي صـــدور العـــيس شـــطر بنـــي تمـــيم

وقال لقيط الإيادي [٣٤]:

وقـد أظلكـم مـن شـطر ثغـركم هـــول لـــه ظلـــم تغشـــاكم قطعـــا

وقال الشاعر [٣٥]:

إن العســير بهــا داء مخامرهــا فشـــطرها بصـــر العينـــين مســـحور

وهذا كله مع غيره من أشعارهم يبين أن شطر الشيء قصد عين الشيء: إذا كان معاينا فبالصواب، وإذا كان مغيبا فبالاجتهاد بالتوجه إليه.." [٣٦].

---

(٣٣) شاعر هذيل (ساعدة بن جؤية بن كعب بن كامل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة) روى شعر، أبو ذؤيب الهذلي الشاعر الجاهلي الإسلامي. ينسب صاحب اللسان البيت إلى ابي زباع الجذامي. والشافعي أعلم من صاحب اللسان بشعر هذيل وساعدة بن جؤية منها.

(٣٤) شاعر جاهلي.

(٣٥) لم يسمه الشافعي. والبيت لشاعر جاهلي أو هذلي من هذيل نسبه الطبري إلى شاعر هذلي ولم ينسبه المبرد في الكامل.. ولا صاحب اللسان في مادة شطر. ونسبه في مادة خسر إلى قيس بن خويلد الهذلي.

وأمثالا أخرى في "الأم" حيث يستشهد بالشعر في اللمس الموجب للوضوء وقد سلف بيانه، ويحدد الرمة بأنها العظم البالي – فيستشهد "قال الشاعر"

... أمـــــــا عظامهـــــــا فـــرم وأمـــا لحمهـــا فصـــليب [٣٧]

ويتردد الاستشهاد بالشعر على المعاني في أكثر من مجال، مثل "السر" في قوله تعالى (ولكن لا تواعدوهن سرا) مقصود به الجماع – يفهم ذلك من يعرف لغة الجاهلية وصدر الإسلام. ويستشهد الشافعي في ذلك بشعر امرئ القيس وشعر جرير فيقول: قال "امرؤ القيس":

ألا زعمـــت بسياســـة الحـــي أننـــي كبـــرت وألا يحســـن الســـر أمثـــالي

كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وأمنـع عرسـي أن يـزن بهـا الحـالي

وقال جرير يرثي امرأته:

---

(٣٦) عرض الشافعي في كتاب الرسالة وحده مائتي مرة وست عشرة مرة ببيان أو تفسير لآية أو سورة من القرآن.. ولو نشر تفسير، أو تعليقه على الآيات التي عرض لها في شتى مصنفاته، لانضافت ثروة جديدة لعلوم الدين، كمثل ما تضاف ثروة كبرى اللغة بتجميع ألفاظه وأساليبه ونحه ودراستها.

(٣٧) البيت لعلقمة الفحل – شاعر جاهلي – سقط جزء منه من نسخ الأم صحته:

بـــه جيـــف الحســـرى فأمـــا عظامهـــا فـــرم وأمـــا لحمهـــا فصـــليب

– والحسرى النياق التي هلكت تعبا.

كانــت إذا هجــر الخليــل فراشــها خــزن الحــديث وعفــت الأســرار

قال الشافعي: فإذا علم أن حديثها مخزون – فخزن الحديث ألا يباح به سرا ولا علانية. فإذا وصفها فلا معنى للعفاف غير الأسرار والأسرار الجماع.

ومثل قوله عن معنى قوله تعالى: "وقد أفضى بعضكم إلى بعض" إن معناه ما بين الزوجين من مباضعة.. فثم لغة عالية وكناية تسمو عن التعبير الدارج.

ومثل قوله في باب المشي إلى الجمعة في قوله تعالى: "إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله" ومعقول أن السعي في هذا الموضع العمل قال عز وجل: "وإن سعيكم لشتى" وقال: "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها". قال زهير:

سعى بدعهم قوم لكي يدركو همو فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا

ومثل حديثه عن يوم الجمعة، فالعرب كانت تسمية عروبة. ويستشهد على ذلك بقول الشاعر:

نفسي الفداء لأقوام همو خلطوا يوم العروبة أزوادا بأزواد

ومثلن قوله في باب دخول مكة لغير إرادة الحج ولا عمرة قال الله عز وجل:

"وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا". والمثابة في كلام العرب الموضع ينوب الناس إليه.. ويقال ثاب إليه اجتمع إليه فالمثابة تجمع الاجتماع.. قال ورقة بن نوفل يذكر البيت:

مثابـــا لأنحـــاء القبائـــل كلهـــا تخـــب إليـــه الـــيعملات الـــذوابل

وقال خداش بن زهير النصري:

فمـــا برحـــت بكـــر تثـــوب وتـــدعي ويلحـــق مـــنهم أولـــون وآخـــر"

ومثل قوله في كتاب قتال أهل البغي والردة "والفئ الرجعة عن القتال. قال أبو ذؤيب يعير نفرا من قومه انهزموا عن رجل من أهله في وقعة:

لا ينســـأ الله منـــا معشـــرا رجعـــوا يوم الأميلح لا غابوا ولا جرحوا

عقـوا بسـهم فلـم يشـعر بهـم أحـد
ثـم اسـتفاءوا وقـالوا حبـذا الوضـح"

وأحيانا يستشهد بالشعر لرواية التاريخ كمثل ما يروي شعر أبي سفيان يوم أحد عندما استنقذوه، وهو تحت آخر يقتله.

ويستطرد في الاستشهاد، فيرجع إلى "شعر تأبط شرا" لبيان المعنى الدقيق للفظ "ليثبت أن "العرب تقول للمرأة ترب أمرهم أمنا. وأم العيال. وتقول ذلك للرجل يتولى أن يقوتهم: أم العيال. بمعنى أنه وضع نفسه موضع الأم التي ترب العيال".

***

وكما يتجلى إدراكه الدقيق لمعاني الألفاظ يتجلى إدراكه العميق لمعاني الأساليب. وإليك مثلا: رأيه في آية الطهارة:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا**﴾ وظاهر منها نظم الكلام على الوجه الأحسن من مجاورة الملائم للملائم مراعاة لحسن الجوار ليكون لفظ الكلام مؤتلفا مع معناه. ولذلك عدل عن الترتيب إلى التقديم والتأخير البلاغي، فجعل المسح للرءوس قبل الغسل للأرجل. ولو كانت الآية قد وردت في التنزيل: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم" لما اختلف العلماء في المسح والغسل. وكل ما وصف وضوء الرسول وأصحابه لم يرو أن أحدا منهم غسل رجليه قبل مسح رأسه. وإذا علم أن مسح الرأس مقدم على غسل الرجلين، علم أن الواجب غسل الرجل (لا مسحهما إلى الكعبين) حيث إنه سبحانه قدم ذكر مسح الرأس ليعلمنا ترتيب غسل الأعضاء في الوضوء كما كانت في الغسل. فإن الغسل يختم فيه بغسل الرجلين، ولما أخر ذكر الرجلين أتى بالتحديد،! ليعلم أن الأمر فيهما معطوف على الأعضاء المغسولة لا على العضو الممسوح.

ولمعرفة الشافعي بكنه بلاغة العرب رأى وجوب الترتيب في الوضوء لكون الآية جاءت مرتبة للأعضاء، ولم يحفل بالتقديم والتأخير، وإن أوجب لبسا، اتكالا على ما في التحديد من دفع ذلك اللبس. يقول: متمثلا بأعمال الحج: "فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفا. وقال نبدأ بما بدأ الله به. ولم أعلم خلافا أنه لو بدأ بالمروة ألغى طوافا. حتى يكون بدؤه بالصفا. وكما قلنا في الجمار. إن بدأ بالآخرة قبل الأولى أعاد حتى تكون بعدها. وإن بدأ بالطواف بالصفا والمروة قبل الطواف بالبيت أعاد. فكان الوضوء في هذا المعنى أوكد.. والله أعلم".

وقال: "أخبرنا مالك عن عمرو بن يحيى عن أبيه أنه قال لعبد الله ابن زيد: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضأ؟

قال عبد الله بن زيد: نعم. فدعا بوضوء فأفرغ على يديه ثم مضمض واستنشق ثلاثا. ثم غسل وجهه ثلاثا. ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين. ثم مسح برأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر. بدأ بمقدم رأسه. ثم ذهب إلى قفاه. ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه. ثم غسل رجليه".

قبل شرح رأيه الكثير. ومنه أنه تعالى قال: "إذا قمت إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم" والفاء للتعقيب. وظاهر الآية يقتضي وجوب تقديم غسل الوجه، فإذا ثبت هذا وجب الترتيب في سائر الأعضاء، ضرورة أنه لا قائل بالفرق. وحرف الفاء داخل على غسل الوجه صريحا، وقد بدأت به الآية، وعلى مجموع أفعال الوضوء التي تتابعت بعده.

ومن ناحية أخرى فهذه الأعمال متتابعة الترتيب في الآية، متتابعة الترتيب في السنة، فالأمر واقع بالضوء على هذا الترتيب، فيجب القيام به على هذا الترتيب. قال النبي أعمال الحج "ابدأوا بما بدأ به الله".

والبدء بما بدأ به الله، والترتيب على ما ورد في قوله، أحوط. وفيه تعبد. وقياس على الترتيب في أعمال الصلاة.

ومثلا آخر: رأيه في القرء.

يقول تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) والقرء يطلق على الحيضة كما يطلق على الطهر.

والعرب تقول عن القرء إنه الوقت المعتاد. "للحمي قرء" أي دور معتاد تكون فيه و"للمرأة قرء" أي وقت معتاد تحيض فيه وتطهر فيه.

نقل البخاري في صحيحه عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: (أقرأت المرأة إذا دنا حيضها. وأقرأت إذا دنا طهرها) وقال ابن قتيبة في غريب القرآن: (وإنما جعل الحيض قرءا والطهر قرءا لأن أصل القرء فقي كلام العرب الوقت. يقال رجع فلان لقرئه، أي لوقته الذي كان يرجع فيه. ورجع لقارئه أيضا).

وقد اختار الشافعي أنه الطهر، لا أنه الحيضة.

قالوا: ناقش الشافعي أبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣) [٣٨] في القرء. هل هو الطهر أو الحيضة. وكان الشافعي يقول إنه الحيضة والقاسم يقول إنه الطهر. فلما انتهيا من المناقشة صار كل منهما إلى قول صاحبه.. والظاهر أن هذا الذي قالوه بعض طريقة الشافعي في الحوار. فقد اشتهر عنه أنه كان يقول لخصمه أحيانا تقلد قولي وأتقلد قولك ليصلا إلى أعماق المسالة. كما سنرى بعد. فالطهر رأيه أولا وآخرا..

قالت أم المؤمنين عائشة لزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وغيرهما: الأقراء الأطهار. وقال صحابة آخرون الأقراء الحيضات. والشافعي يختار قول عائشة وزيد وعبد الله بن عمر

---

(٣٨) تلميذ الشافعي في الفقه، وأبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي عبيدة في اللغة والأدب. له كتب في غريب القرآن وغريب الحديث وفضائل القرآن وعدد آي القرآن والناسخ والمنسوخ وكثير سواها.

ويرجحه باللغة والسنة والقرآن. ويقول في الرسالة "الحيض هو أن يرخي الرحم الدم حتى يطهر. والطهر أن يقري الرحم الدم فلا يظهر. ويكون الطهر والقري الحبس

لا الإرسال. فالطهر – إذ يكون وقتا – أولى في اللسان بمعنى القرء لأنه حبس الدم" ثم يستشهد على رأيه الكتاب والسنة ويناقش الرأي الآخر.

***

ولكم أشهد الشافعي خضار حلقته آيات حريته شجاعته: كان يرى الإمامة في قريش [٣٩] كما يراها الجمهور وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل، لا كما يراها فريق من المعتزلة، أو يراها الخوارزمي.

وكان لا يرى الانتخاب شرطا للإمامة، بل قد يفرض الخليفة نفسه على الناس فيبايعونه. ولا يشترط الهاشمية – كالشيعة – الذين يرون النبي أوصى بالخلافة لعللي ولخلفائه.

قال حرملة: سمعت الشافعي يقول كل من غلب على الخلافة بالسيف حتى يسمى خليفة ويجتمع الناس عليه فهو خليفة. قال حرملة يعني من قريش، يغزي معه ويصلي خلفه الجمعة، ومن لم يفعل فهو صاحب بدعة.

---

(٣٩) حدث الشافعي في الأم ".. أن قتادة بن النعمان وقع بقريش فكأنه نال منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلا يا قتادة لا تشتم قريشا فإنك لعلك ترى منها رجالا، أو يأتي منها رجال، تحتقر عملك مع أعمالهم، وفعلك مع أفعالهم، وتغبطهم إذا رأيتهم – لولا أن تطغى قريش لأخبرتها بالذي لها عند الله".

ويرى الشافعي أبا بكر أولى من علي بالخلافة، وعمر أولى من علي بها. ويأتي بعثمان قبل علي في الترتيب. ويرى عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين. وهو واحد من بني أمية.

وحسبنا زواجه من حفيدة عثمان، وتكنيه ابنه بأبي عثمان؛ دلالة على مكانته عنده مع حبه الذي لا يتناهى لعلي.

قال له قائل: ما رأيت هاشميا يقدم أبا بكر وعمر على علي غيرك. قال: علي ابن عمي وابن خالتي – ولو كان كما قلت لكنت بهذه الكرامة أولى. ولكن ليس الأمر كما تتمنى.

ومع أنه كان يرى معاوية وأصحابه الفئة الباغية، واتخذ في كتابه (السير) سنة علي في معاملة البغاة حجة، كان كأبي حنيفة وعمر بن عبد العزيز والحسن البصري، لا يستحسن الخوض في حديث معاوية على نحو ما قاله السابقون: (تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب بها لساني).

ومن قبل بايع أستاذه ابن عباس ليزيد بن معاوية ثم لم يتدخل في السياسة حتى مات.

قيل للشافعي يوما إن فيك بعض التشيع لأنك تظهر حب آل محمد. قال: "يا قوم ألم يقل رسول الله: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين" أليس من الدين أن أحب قرابتي وذوي رحمي إذا كانوا من المتقين"؟.

وحضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم. هم أحق بالكلام. ولهم الرياسة والفضل.

ولما نسب إليه التشيع في مجلس الإمام أحمد بن حنبل قال أحمد: والله ما رأينا منه إلا خيرا.. اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئا وحرم قرناءه وأشكاله، حسدوه فرموه بما ليس فيهم. وبئست هذه الخصلة من أهل العلم.

قال رجل في مجلسه ما نفر الناس من علي إلا لأنه كان لا يبالي بأحد. فقال الشافعي: كان فيه أربع خصال ما اجتمعت خصلة واحدة لإنسان إلا ويحق له ألا يبالي بأحد: كان زاهدا والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها. وكان عالما والعالم لا يبالي بأحد. وكان شجاعا والشجاع لا يبالي بأحد. وكان شريفا والشريف لا يبالي بأحد.

فالشافعي يعلن آراءه لا يهمه خلاف غيره من الخوارج أو المعتزلة أو الشيعة أو أصحاب مذهب السلطان، أو الدولة التي نكلت بالشيعة، وجاءت على جثث بني أمية. ويعطي أهل البيت كل قلبه. ومع أنه كان يرفض شهادة الرافضة لقولهم الزور. فقد كان لا يهاب ألا يسلقه المرجفون بألسنتهم من أجل حبه لأهل البيت. ويقول في جسارة:

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

وسيعلن فيما بعد ما هو كامن في عقله الباطن، من عروة وثقى تربطه بعلي.. قال: "رأيت وأنا باليمن في المنام كأني جالس في سواء الطواف، إذ قيل هذا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، فقمت إليه وسلمت عليه وصافحته وعانقته. فخلع خاتمه من إصبعه فجعله في إصبعي فلما أصبحت قلت.. جئني بالمعبر.. فقال أبشر.. أما رؤيتك علي بن أبي طالب في المسجد الحرام فهو النجاة من النار. وأما مصافحتك إياه فهو الأمان يوم الحساب. وأما نقله الخاتم في إصبعك فسيبلغ اسمك في الدنيا حيث يبلغ اسم علي بن أبي طالب.

***

جلس أحمد بن حنبل في حلقة الشافعي إذ قدم أحمد مكة في سنة ١٨٧، وسنة ١٩١ فراعه كل ما رآه عنده من علوم القرآن والسنة والبلاغة، إلى آيات الشجاعة وشريعة الإنصاف التي هي ديدن الأئمة، وملاك الأمر في الحلقة.

فالأستاذ يقول: "إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحة فاحكوها عني فإني قائل بها" ويقول "ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله" و"ما ناظرت أحدا إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه".

ويقول: "ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها إلا هبته، واعتقدت مودته، ولا كابرني على الحق ودفع الحجة الصحيحة إلا سقط من عيني ورفضته" ويقول: "وددت أن كل ما أعلمه يعلمه الناس، أوجر عليه، ولا يحمدونني".

كان في حلقته والناس يتقاطرون عليه من كل أرجاء العالم، وسفيان بن عيينة يحدث في حلقته، وإسحاق بن راهويه (١٦١ – ٢٣٧) أستاذ البخاري وداود بن علي، أو "شهنشاه الحديث" كما يسميه أهل خرسان، يكتب أحاديث سفيان. فإذا أحمد ابن حنبل يجذب إسحق مرات ويقول له: قم حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله.. فأتى به فناء زمزم، فإذا الشافعي هناك، وعليه ثياب بيض، فأجلسه إلى جانبه وقال: يا أبا عبد الله هذا إسحق بن راهويه الحنظلي. فرحب به، وحياه، فتذاكرا.. فانفجر ه منه علم أعجبه.. لكن إسحق لم يحسب أنه الرجل الذي دعاه لرؤيته، فقال لابن حنبل: هلم بنا إلى الرجل.

قال ابن حنبل: هذا هو الرجل.

قال إسحق: يا سبحان الله أقمتنا من عند رجل يقول حدثنا الزهري، فما توهمت إلا أن تأتي بنا إلى رجل مثل الزهري أو قريب منه، فأتيت بنا إلى هذا الشاب!

قال ابن حنبل: يا أبا يعقوب اقتبس منه فإني ما رأيت عيناي مثله.. فكان إسحق يجلس يسأل ويناظر.

ناظره مرة في جلود الميتة إذا دبغت..

وسأله مرة عن جواز إجارة البيوت بمكة فأجازها.

فروى له إسحق حديثا عن عائشة عن النبي في كره إجارتها، فلما فرغ إسحق سكت الشافعي برهة يستجمع ويسترجع ثم شرعا يتناقشان. فالشافعي يحتج بأحاديث النبي، وإسحق يحتج بأقوال الفقهاء.

قال الشافعي: لو قلت قولك احتجت أن أسلسل. أنا أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت تقول: عطاء وطاوس وإبراهيم والحسن وهؤلاء لا يرون ذلك! هل لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة؟

والتفت إسحق إلى بعض من معه من أهل مرو، وقال بلغتهم ما معناه أنه رجل "متعالم"، فأدرك الشافعي من هذا التراطن أن محدثه بحاجة إلى مزيد فهم وعلم، فعرض عليه الشافعي أن يتناظرا.

وتناظرا فكانت حجة الشافعي بنصوص الآيات ومعاني الكلمات، وهيهات أن يلحقه في ذلك عالم خراسان.

وسكت إسحق ولم يتكلم.. قال بعد أعوام طوال في القرن التالي "فلما تدبرت ما قال من قول رسول الله. علمت أنه قد فهم ما غاب عنا".

وبقي في خلده من مفاوهة الشافعي الكثير، فصار يذكره بأنه "خطيب العلماء". وكلما تذكر أنه خطئ الطريق قال: وأحيائي من محمد بن إدريس.

ويمضي الدهر فيروي داود الظاهري قول إسحق له (ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعي بمكة فسألته عن أشياء فوجدته فصيحا حسن الأدب. فلما فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم أهل زمانه بالقرآن وأنه قد أوتي فيه فهما. فلو كنت (عرفته للزمته).. قال داود.. ورأيته يتأسف على ما فاته منه.

وكان ابن حنبل يلازم إسحق. قال: "لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث" وقال عن تبحر الشافعي في القرآن والسنة: "كانت أقضيتنا في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع، حتى رأينا الشافعي، فكان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسول الله".

تذاكر ابن حنبل في مسألة فقال قائل: يا أبا عبد الله لا يصح فيها حديث فقال: إن لم يصح فيها حديث ففيه قول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه.

ذلك قو ابن حنبل صاحب المسند الأعظم.

وقف واقف في مكة على حلقة عامرة حول رجل فسأله فقيل: هذا محمد بن إدريس الشافعي يقول: سلوني عما شئتم أخبركم بآية من كتاب الله، وسنة عن رسول الله، وقول صحابي. فقال في نفسه: إن هذا الرجل جرئ! وبدا له أن يعاجزه، فسأله عن المحرم يقتل الزنبور.

قال الشافعي: قال تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا". وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عجيز عن ربعي بن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر". وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعد عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب أن عمر رضي الله عنه أمر المحرم بقتل الزنبور".

فهو يجادل بنصوص الكتاب، وبنصوص الأحاديث والسنن، وهي، في كل حوار حاوره، عمدته وعدته وأساس منهاجه.

في فناء زمزم جاءه كتاب عبد الرحمن بن مهدي بن حسان" (١٣٥ – ١٩٨) شيخ المحدثين بالعراق [٤٠] يلتمس أن يضع كتابا يذكر فيه معاني القرآن وشروط قبول الأخبار وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة فوضع له كتابا سيسمي فيما بعد الرسالة، وضع فيها منهاجه في أصول الفقه لاستنباط الأحكام من القرآن. وما تزال حتى اليوم لم يزد عليها الفقهاء، في نحو ألف عام ومائتي عام، إلا بتفاصيل.

---

(٤٠) كان خصيما لأهل الرأي وزعيما لأهل الحديث بالعراق. أملي على القواريري عشرين ألف حديث حفظا، ولم ير، أحد ضاحكا ضحكا بقهقهة إلا التبسم. فإن خشي أن يغلبه الضحك أمسك على فمه.. وكان يقول: ما يدري أبو حنيفة ما العلم..!! ومع ذلك أراد رجل أن يتقرب إليه بسوء في أبي حنيفة فصده. قال الرجل: إنما وضعت كتبا في الرد على أبي حنيفة. قال: إنما ترد عليه بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار الصالحين. فأما ما فعلت فرد الباطل على الباطل.. فذهب الرجل يتكلم فقال له: محرم عليك أن تتكلم أو تتمكن في داري. وكان لا يتحدث في مجلسه. ولا يبري قلم في مجلسه. كأن الناس في صلاة. قال الشافعي عنه: لا أعرف له نظيرا في الدنيا.

***

في فناء زمزم كذلك تلمذ له جماعة من الفقهاء منهم الحميدي، صاحبه عند سفيان ابن عيينة، وقد جالس سفيان عشرين عاما وصار من كبار شيوخ البخاري. ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن شافع – ابن عمه – نشأ بمكة وروي عن ابن عيينة وغيره. وحدث عنه جماعة، لكن لم ينتشر عنه كبير فقه، مات سنة ٢٣٧.

ومنهم وراق الحميدي: أبو بكر محمد إبن إدريس.

ومنهم أبو الوليد موسى بن أبي الجارود. ستجري بينه المكاتبات غدا وبين داود بن علي في معنى القياس وإبطاله – وكان ابن أبي الجارود يقول: ما رأيت أحدا إلا وكتبه أكبر من مشاهدته إلا الشافعي فإن لسانه أكبر من كتبه.. ويقول: محمد بن إدريس وحده يحتج به كما يحتج بالبطن من العرب. وستؤول إليه رياسة الحلقة في مكة.

كانت مكة والمدينة قد أثخنتهما الدولتان الأموية والعباسية بالجراح، نحو قرن ونصف قرن من الزمان، من ضرب الكعبة بالمجانيق، إلى قتل الصحابة والتابعين، إلى الفتك بأهل البيت من أبناء علي وأبناء الزبير، وكان أهل البلدتين المباركتين يتبادلان مع الدولتين أزمة ثقة. والخلفاء في الدولتين يبتغون إليهم الوسيلة من كل وجه. لكنهم كانوا أعزة متعالين. أراد الخليفة عبد الملك بن مروان أن يمد إلى سعيد بن المسيب فقيه المدينة بسبب [٤١]. فخطب بنت سعيد

---

(٤١) رفض سعيد بيعة ابن الزبير فضرب ستين صوتا، ورفض بيعة سليمان بن عبد الملك فضربه والي المدينة ستين سوطا. والشافعي يأخذ بأحاديثه المرسلة.

لابنه الوليد بن عبد الملك عندما ولاه العهد. فأبي سعيد. وبعد ذلك جاءه تلميذه أبو وداعة، بعد إذ تخلف أياما، فسأله فأنبأه بوفاة زوجته وفاقته وانشغاله بإصلاح أمر العيال. فزوجه ابنته.. وصيرها إليه.. أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله وسنة رسوله.

وفي سنة ١٦٠ حج المهدي ففرق في الحجاز ٣٠ مليون درهم ووزع ١٥٠ ألف ثوب جاءته من مصر و٣٠٠ ألف ينار، وحمل إليه الثلج من الشام. فكان أول ثلج يدخل مكة.. وتزوج بفتاة من أهل المدينة. واختار خمسمائة من الأنصار ليكونوا حرسا خاصا له في بغداد.

وفي سنة ١٨٦ أنفق الرشيد مليونا وخمسمائة ألف دينار في الحج. وكان يتلمس العلماء. قصد إلى الفضيل بن عياض فوعظه فلما هم ليخرج قال: هل عليك دين؟

قال الفضيل: دين لربي.

قال الشريد: أعني دينا للعباد.

قال الفضيل: إن الله لم أمرني بهذا.

فأعطاه الرشيد ألف دينار، فردها.

قال الفضيل: أنا أدلك على النجاة وتكافئني بهذا!! سلمك الله ووفقك.

وعرض الرشيد على المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي قضاء المدينة وجائزته أربعة آلاف دينار فامتنع.. قال: يا أمير المؤمنين يخنقني الله أحب إلي من القضاء!! فأعفاه وأجازه بألفي دينار.

***

استعصمت مكة والمدينة. فهما إن لم تكونا عاصمتي دولتين، إنهما عاصمتا الإسلام الخالدتان اللتان لا تنافسان.

إلى الأولى يتجه المسلمون على مدار اليوم وعلى مدار الزمن. وفي الثانية يرقد جثمان سيد الخلق أجمعين وأحبهم إلى قلوب المسلمين.

كان احتضان الدولة العباسية لفقه أبي حنيفة حريا بأن تدفع مكة أو المدينة إلى الوجود بعالم يعيد سيادة الفقه إلى مهبط الوحي في مكة والمدينة. فما أعظمها آية أن يجئ هذا العالم المأمول عربيا قرشيا، يملأ طباق الأرض علما.

ولقد طوع له الزمان أن تثبت قدمه أحد عشر عاما في حمى البيت الحرام، حيث المسلمون جميعا يتمنون مجرد رؤيته أو البقاء ساعات عنده، وحيث العلم الإسلامي كله يتناظر فيه الحجيج كل عام. فما كان أروح للشافعي أن يبقى هنالك، في هدوء الزمن وراحة البدن. لكن هذه العوامل جميعا لم تصرفه عن قدره المقدور عليه وهو أن ينقل كفاحه إلى ميادين جديدة، بعيدة، فيها المواقع الحاسمة. فقصد إلى العاصمة، كأنما يستعجل المعركة.

كان الجهاد في سبيل الرأي والاجتهاد بالرأي طبيعة فيه، وطريقة له، وهما كلمتان، من أصل واحد، معناهما عنده واحد. فالإسلام علم وعمل.